الفصل الأول

بعض أنماط الفكر البشرى السائدة وصلاحيتها في مجال الفكر إسلامي التأصيل

الفصل الأول

بعض أنماط الفكر البشرى السائدة
وصلاحيتها في مجال الفكر إسلامي التأصيل

مقدمة:

كثيراً ما يقال أن الإنسان يتميز على الحيوان بالعقل، فالعقل يفترض أنه الموجَّه الرئيسي للسلوك البشرى، بينما الغريزة هي الموجَّه المقابل للسلوك الحيواني. ومن أجل ذلك التميز، يعتبر الإنسان في مرتبة خلقية أعلى من الحيوان.

لكن آيات الله الكريمة ترشدنا إلى أن العقل لا يكفى لرقى المرتبة الخلقية ولا الذهنية للإنسان إذا تم تعطيل استغلال تلك المنحة الربانية الفريدة أو إذا ما أسيء استغلالها بدليل وقوع كثير ممن (لهم عقول) في مستنقعات الضلال والخطايا وإهدار الكثير من النعم الأخرى ذات الصلة وهى نعم الحواس وملكات الإدراك. وفى ذلك نسترشد بآيات الله الكريمة ﴿ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ [يس: 62]؛ ﴿ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ [المائدة: 58]؛ ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾ ﴾ [البقرة: 171].

والواقع أن **التعقل** الرشيد لابد أن يصحبه **تفكر**، بمعنى تنشيط العقل وتطويره وترشيده بعمليات الفكر التحليلي المتعمق للأمور وللظواهر، ويعتقد أنه بدون تفكر لن يكون هناك صحيح التعقل، وذلك بدليل التشابه الكبير في الآيات القرآنية الكريمة التي تناولت (التفكر)، وقد يعتبر التفكر هو الشق الحركي النشط والمؤثر المباشر في سلوك الإنسان وتوجهاته ويمكن الاسترشاد على ذلك الاعتقاد بقوله عز وجل في كتابه الكريم ﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾ ﴾ [البقرة: 266]؛ كما يقول تعالى ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الأنعام: 50].

لكن، هل يا ترى تتعادل أو تتشابه كل عمليات التفكر البشرية بشكل معياري وتقييمي موحد؟ أم أن هناك أنواع وأنماط مختلفة من الفكر يمكن أن تكون جميعها – برغم تباينها – ذات أهمية نسبية متقاربة من حيث التنمية البشرية وبخاصة في مجال العقل والإدراك والتدبر والتقييم؟!

لندع لسطور ذلك الفصل مهمة التوجيه والمساعدة في العثور على إجابات مقنعة لما ورد من تساؤلات.

1-1 بعض الأنماط الفكرية السائدة، وارتباطها بتعددية المناهج التحليلية:

يقوم الفكر البشرى خاصة العلمي المتخصص منه على دعائم مختلفة تتمثل في مناهج تحليلية يتبعها المفكرون والباحثون أحدها، أو بعضها، أو كلها وذلك من أجل التعرف على ظاهرة ما، أو إدراك نوع ما من العلاقات أو التقييم الموضوعي لأمر ما. ومن الأمثلة على تلك المناهج: المنهج التاريخي، المنهج الاستقرائي، المنهج الإحصائي ... الخ. وغالباً ما يطلق على تلك المناهج المتبعة مسمى (الفلسفة العلمية). وفى مجال متخصص مثل الاقتصاد، نجد – على سبيل المثال – أن الدكتور/ جلال

أمين (2008، ص12–13) يرى أن الفلسفة الاقتصادية لا تعنى فقط المناهج البحثية أو التحليلية التي يتبعها الاقتصاديون، لكنها تعنى بشكل أكثر تحديداً (طريقة الاقتصاديين في النظر إلى الأمور، ونوع نظرتهم إلى النشاط الاقتصادي).

وبوجه عام، فقد دلت الدراسات المتخصصة على أن الفكر البشرى يمكن أن يولد ويتنامى من خلال أنماط مختلفة تتداخل بخصائصها واستخداماتها عادة مع المناهج التحليلية العلمية المختلفة مثمرة بذلك تيارات واتجاهات وسلوكيات وشخصيات واضحة التميز. ومن أهم الأنماط الفكرية البشرية يمكن أن نذكر ما يلي على سبيل المثال لا الحصر:

1- الفكر التحليلي:

ويستخدم فيه المنهج الرياضي والإحصائي كوسيلة رئيسية لدراسة المشكلة محل الاهتمام مع تشخيص الأسباب الكامنة وراءها، وهو ينظر إلى البيانات على أنها مجرد خامات لابد من معالجتها في المطبخ البحثي بأسلوب تحليلي ملائم لإبراز كل جزئية هامة واستخراج أفضل منافع البيانات المتاحة كنتائج وكمعلومات.

وهذا الأسلوب يتلاءم في غالبيته مع طبيعة البحث المعرفي والتحليل الفكري في مجال متخصص مثل «الاقتصاد الإسلامي» وذلك امتثالاً للأمر الإلهي بضرورة التأمل والتدبر في كل شيء ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [فصلت: 53]. فإن ذلك الأسلوب التحليلي يساعد على إبراز الأحكام التشريعية الإسلامية الاقتصادية التي وردت في الأصول التشريعية من قرآن وسنة بالإضافة إلى أنه يساعد على تيسير الحصول على معلومات أكثر دقة ووضوحاً.

2- الفكر المثالي:

ويقوم عادة على أساس الروحانيات والقيم الأخلاقية، ومن يتبعه غالباً ما يستخدم أو يستعين بالنماذج المحلولة سابقاً في محاولة للإقتداء بها على حالها. وذلك

النمط يعتبر أكثر الأنماط الفكرية السائدة في مجال مثل الاقتصاد الإسلامي، حيث يعتمد بالدرجة الأولى والأساسية على الأصول التشريعية من نصوص قرآنية وأحاديث نبوية ومناهج فكرية للخلفاء الراشدين وللأئمة القدامى وللفكر الإسلامي القديم.

3- الفكر الواقعي:

يقوم على أساس ما هو كائن بالفعل وعلى أساس الحقائق الملموسة والظواهر المرئية والمدركات بالحواس، ويرتكز على استخدام أسلوب التجربة والخطأ على ضوء تجارب واقعية سابقة. والعقل الواقعي (مثل العقل المثالي) هو عقل مستقبل للأمور وللظواهر على حالها وهو يعيش تجربة المعرفية في إطار الأحداث الجارية بدون الاستفادة من التجارب التاريخية الماضية.

وذلك النمط لا يتلاءم تماماً مع المنهج البحثي الإسلامي الذي قد يرفض صورة الحاضر كلياً أو جزئياً إذا ما حدث تعارض بينهما وبين الأحكام التشريعية الإسلامية التي نزلت منذ أكثر من أربعة عشر قرناً من الزمان لكنها وضعت كمنهاج صالح للتطبيق حتى قيام الساعة.

4- الفكر التركيبي:

يقوم على مبدأ فلسفي (الشيء بضده يظهر)، ويقوم على استخدام المنهج المقارن بكثافة عالية. ويصاحب ذلك النمط الفكري عنصر (التناقض الفعلي أو المفتعل) بين الأشياء واستخدامه كوسيلة فاعلة تساعد على استيعاب كل المتغيرات المتداخلة والظواهر والعوامل المتداخلة داخل إطار تحليلي واحد بحيث يتم تقديم صورة موحدة شاملة للظاهرة محل الدراسة متضمنة كل العوامل ذات الصلة المباشرة وغير المباشرة مما يساعد على التخطيط لفترات زمنية متباعدة بشكل منطقي وأكثر مصداقية وفعالية.

وقد يقبل ذلك النمط جزئياً في مجال مثل الاقتصاد الإسلامي الذي يشمل

على تحليل الظواهر ووضع وبناء خطط التنمية والأنظمة الاقتصادية لآجال مستقبلية. غير أن الاقتصاد الإسلامي يتطلب بطبيعته إدخال (قدر الله) في الحسبان وان الله الذي يقول للشيء «كن فيكون» يمكن أن يغير الأمور تماماً في لحظة وشيكة وعلى غير ما يمكن للعلماء أن يتوقعون برغم دقة حساباتهم وتحليلاتهم.

وعن غير قصد، فقد دعم الاقتصادي «روبرت كارسون» تلك الحقيقة حين انتقد الاقتصاد التقليدي الغربي المعاصر وذكر أنه بالغ في استخدام النظريات والقوانين بشرية الإعداد والصنع وفى عرض كم هائل من المعلومات الاقتصادية، ومع هذا، لم يستطع الأمريكيون التنبؤ بالسقوط المدوي للبورصة الأمريكية في يوم الاثنين (الأسود) أكتوبر 1986. برغم كل ما ابتدعوه من قياسات ومعايير اقتصادية تنبؤية عالية المستوى[1].

5- الفكر النفعي (العملي):

ويقوم على مبدأ (الغاية تبرر الوسيلة) مثلما فعل «ميكيافيللي» الإيطالي من قبل. ومن يتسم بذلك النوع من الفكر عادة ما يتبع المنهج الانتقائي ويتوجه بفكره وبسلوكه لما يحقق له منافع أكثر.

وذلك ما يتلاءم تماماً مع المذهبية التي يقوم عليها الفكر الاقتصادي التقليدي الذي يقوم بالدرجة الأولى على تعظيم المنافع وتدنيه الخسائر أو التكاليف، ودائماً ما تتركز اهتمامه على النواحي المادية والملموسة فقط.

أما في مجال متخصص مثل الاقتصاد الإسلامي، فقد يؤخذ ذلك النمط والاتجاه الفكري بشيء من الحذر والتحفظ مراعاة للروحانيات وللأخلاقيات وللتوجيهات التشريعية التربوية التي توجه السلوك الاقتصادي للمسلم إلى قنوات أكثر تميزاً ورقياً

---

(1) لمزيد من التفاصيل ارجع إلى روبرت كارسون، 1994، ص 14-18

مثل أن يحب المرء للغير ما يحبه لنفسه، ومثل إيثار الغير على النفس (وليس العكس كما يحدث في الاقتصاد التقليدي الذي يقوم على الأنانية الفردية وإيثار النفس على الغير)[1].

2-1 بعض النماذج التطبيقية للأنماط الفكرية لبعض أئمة الفقهاء القدامى:

باعتبار أن الفقهاء القدامى يمثلون مصدراً معرفياً بالغ الأهمية للباحثين المعاصرين في مجال الفكر الإسلامي، بل وفى غيره من المجالات البحثية والمعرفية المختلفة فقد يفيد عرض نماذج للأنماط الفكرية الهامة لبعض أولئك الأئمة القدوة في مجال الفكر العلمي الإسلامي النموذجي حيث يمكن للباحث المعاصر عند استعانته بكتابات أولئك الأئمة أن يقف على طبيعة الاتجاه الفكري الذي كان يتسم به مما يفيد بشكل كبير في تفسير الاختلاف الظاهري لعرض بعض الأحكام التشريعية التي قدمها كل منهم.

1- النمط الفكري للإمام أبى حنيفة:

كان يتمتع باستقلالية فكرية بالغة العمق، وكان ذا عقلٍ ناقد مقارن بطبعه، ابتكر ما يسمى (الفقه التقديري) وهو فقه نظري يتم من خلاله تصور لظواهر لم تقع في الواقع ثم يتم تتبع وبحث ودراسة الأحكام الفقهية المتوقعة لها، ومن ثم فقد كان أبو حنيفة بارعاً في وضع الفروض القابلة للتحقيق من صحتها. وكان يعطى الأولوية للاستحسان قبل القياس، حيث يهتم بالمضمون المتعلق بالاستحسان أكثر من اهتمامه بالقياس على شكل أو أمر ظاهري[2].

---

(1) ارجع إلى صبري الأشوح، 1417هـ/ 1997م، ص 13-23

(2) صبري الأشوح، مرجع سبق ذكره، ص 182-184، 198.

2- النمط الفكري للإمام مالك:

كان يعتبر نموذجاً قدوة لرجل الأعمال ورجل الدولة الناجح لأنه كان عملي التفكير، يتمتع بشخصية مهيمنة على من حوله بشكل طبيعي وتلقائي نتيجة لحنكته الفكرية العلمية للأمور، كان يكره الجدل والمناظرات لأنها تتسبب في التباغض والمشاحنات، ومن ثم كان يتجنب علوم (الكلام).

كان أيضاً يهاجم (الفقه التقديري الحنفي) ويعتبره مجرد كلام (نظري) لا يتلاءم مع الواقع العملي، ومن ثم كان لا يتبع مبدأ وضع فروض مسبقة للتحقق من صحتها ولكن يبدى آراءه وفتاواه في المسائل والأمور الفعلية[1].

3- النمط الفكري للإمام الشافعي:

وكان نموذجاً لرجل القانون الأكاديمي الموسوعي، يأخذ بالظواهر والأمور المادية الملموسة ويهتم بها أكثر من المضمون، لا يتمتع أبداً بالتفكير التركيبي، انصب جل اهتمامه على تأصيل الأصول وضبط القواعد الفقهية وكان له الفضل في تدوين علم (أصول الفقه) ولم يكن يأخذ بآراء الفقهاء الآخرين والقدامى كما هى، بل كان عادة ما يصدر نتائج فقهية نهائية مخالفة لما كتب من قبل وقد ضايق ذلك أتباع الأئمة السابقين، وفى ذلك قال المقدسي «رأيت أصحاب مالك يبغضون الشافعي ويقولون أخذ العمل من مالك ثم خالفه»[2].

4- النمط الفكري للإمام ابن حنبل:

هو رائد السلفية، ودائماً ما يطبق مبدأ (الماضي هو الحل) حيث كان يرفض

---

(1) المرجع السابق، ص 184-189

(2) المرجع السابق، ص 187-189، 198

الواقع الذي كان يعيش في ظله، ركز كل جهوده في جمع وتدوين الأحاديث النبوية وأفكار السلف وكان يميل لفقه الشافعي ولا يميل إلى فقه أبى حنيفة. وكان مثل الإمام مالك يكره النقاش والجدل وعلم الكلام. ويمكن اعتبار الإمام ابن حنبل بمثابة (الإنسان الاقتصادي الرشيد) حيث أنه كان يجمع بين المثالية (بالإتباع الكامل للسنة النبوية الشريفة ومن ذلك أنه كان يحتجم ويمنح الحجام ديناراً كما كان الرسول ﷺ يفعل)، والنفعية (ومن دلائل ذلك أنه أجاز طاعة الحاكم سواء كان براً أو فاجراً وذلك ردءاً للفتن وللمشاحنات) [1].

5- النمط الفكري للإمام ابن حزم:

كان ذا تفكير تركيبي مقارن، مغرم بالجدل وبالمناظرات، مستقل كثيراً بفكره، كان يستخدم البديهيات والمسلمات العقلية والظواهر والحقائق الشاملة كأسس لوضع فروض مرتبة الأولويات بحيث يهتم بالمقارنة بين الفروض التي وضعها أكثر من اهتمامه بإتباع أسلوب (المناطقة) التقليدية (بما أن .... إذن). وكان لا يهتم بالفكر التحليلي بقدر اهتمامه بالفكر التركيبي المقارن الذي يمكنه من عرضه معلومات ونتائج أكثر شمولية واتساعاً مما يمكن عرضه ودراسته في إطار الفكر التحليلي محدد النطاق والمتغيرات ومن ثم لم يكن فكره (مثالياً)، كما هو الحال في فكرى الشافعي والحنبلي.

ووفقاً للحكمة الشائعة (اختلاف العلماء رحمة) فإن الاختلافات الموضحة في الأنماط الفكرية للأئمة القدامى قد أثمرت عن ثروة فقهية تشريعية يمكن أن تمثل مصدراً تشريعياً واسعاً وصالحاً للأخذ به على مدى الأزمنة التالية المختلفة وفى ظل التغيرات المستمرة الحادثة عبر تلك الأزمنة، كما يتيح مرونة التطبيق لتلك

---

(1) المرجع السابق، ص 189– 194، 198.

الأحكام ذات المصادر الفكرية متنوعة الأنماط بشكل صحي وفعال، وهو ما يمكن أن يتلاءم أيضاً مع التعددية اللاهثة في النظريات والقوانين والمصطلحات والمفاهيم والأنظمة الاقتصادية المعاصرة التي تتطلب معالجتها بأنماط فكرية متنوعة عند تناولها في مجال البحث الإسلامي بحيث تصبح تلك الأنماط الفكرية المتنوعة قادرة على استيعاب تلك المتغيرات وتناولها بأساليب علمية مناسبة لكل منها.